رسالة القدّيس بولس إلى فيلمون

أبرز موضوعاتها

الأب أيّوب شهوان
أستاذ مادّة الكتاب المقدس
جامعة الروح القدس – الكسليك

مقدّمـــة

يزيّنُ صفاءُ نَفْسِ القدّيسِ بولسَ الإنسانيّ إلى أقصى الحدود الرسالةَ إلى فيلمون، التي تُعتَبَر إلى حدٍّ ما وثيقة تاريخيّة هامّة، تفيد عن كيفيّة تعامل الكنيسة مع مسألة العبوديّة[١]، كما نتبيّن ممّا كتبه بولس إلى أهل كورنتس:

"ومهما يكن من أمر، فَلْيَسِرْ كلٌّ واحد في حياته على ما قسم له الربّ كما كان عليه إذ دعاه الله، وهذا ما أفرضه في الكنائس كلّها. فَلْيَبْقَ كلٌّ واحد على الحال التي كان فيها حين دعي" (١ كو ٧: ١٧–٢٤؛ رج غل ٣: ١٨).

لقد طُرِحَتْ مسألة العبوديّة على ضمير الكنيسة الأولى[٢]، وكان من بين المهتدين إلى الإيمان بالمسيح عبيدٌ كثيرون، وكان الحلّ، من أجل مَحْوِ العبوديّة، يقضي باعتماد المبدأ التالي: تكفي المحبّةُ والأخوّةُ في المسيح يسوع!

إنّ الدافع إلى كتابة الرسالة إلى فيلمون هو التالي: كان لفيلمون بين مستخدميه عبدٌ اسمُه "أونسيموس" (آ ١)، فَرَّ من بيت سيّده (آ ١٥)، ولكنّ السبب غير معروف، ومن غير المؤكّد أنّه سرقه، بالرغم من الآيتَين ١٨–١٩؛ مع هذا، فإنّ هذا الفرار قد سبّب لفيلمون ضررًا كبيرًا[٣].

من غير المعروف في أيّة ظروف أو لأيّة دوافع التقى أونسيموسُ بولسَ في المدينة التي كان هذا الأخير مُحتَجَزًا فيها (آ ٩، ١٠، ١٣، ٢٣). ما هو واضح هو أنّه، وبتوجيه من الرسول، ارتدّ أونسيموس إلى الإيمان المسيحيّ (آ ١٠)، فأصبح هكذا ابنًا روحيًّا بالنسبة إلى بولس، لا بل موضوع عطف خاصّ: "أتوسّل إليك من أجل ولدي أونسيموس الذي ولدته في السّلاسل" (آ ١٠)؛ "هو حُشاشتي" (آ ١٢)؛ "إذًا، إنْ كنتَ تَحسبُني شريكًا، فاقبله كما تقبَلُني" (آ ١٧).

استنادًا إلى أقوال بولس بالذات، كان يُعتَقَد أنّه، بفضل توصياته، وبفضل حالة أونسيموس الجديدة، سيلقاه فيلمون، "ليس عبدًا، بل أرفعَ من عبد، أخًا حبيبًا" (آ ١٦). من المحتمل أنّ بولس كان يبغي أن يُبقِيَ فيلمونُ أونسيموسَ عنده، ولكنّه لم يشأ أن يفرضَ هذه المبادرة على فيلمون، فترك الأمرَ لكَرَمِه (آ ١٤). في كلّ الأحوال، لا يبدو أنّ بولس يسأل في الوقت عينه إعتاق العبد؛ فحتّى لو عاد ليخدم بولس، فهو يبقى مِلْكًا لفيلمون.

هكذا، بالتالي، لا يكون هناك مساسٌ بالمؤسّسة. لكن، كيف يمكن فهم ما يعلّمه بولس بأنّه، في المسيح، "لا عبدَ ولا حرّ" (غل ٣: ٢٨؛ ١ كو ١٢: ١٣؛ كول ٣: ١١) ؟

(١) R. LEHMANN, *Épître à Philémon. Le christianisme primitif et l'esclavage,* Genève, Labor et Fides 1978.

(٢) John M. G. BARCLAY, "Paul, Philemon and the Dilemma of Christian Slave-Ownership", *NTS* 37 (1991) 161-186.

(٣) David DAUB, "Onesimos", *HTR* 79/1-3 (1986) 40-43.

٢ – مسألة العبودية

يَرُدُّ بولس إلى الإيمان عبدًا فارًّا، ويكتب إلى مولى هذا الأخير متوسّطًا من أجل العفو عنه وقبوله، دون أن يطلب إخلاء سبيله، وهذا ما يبعث على التساؤل، خاصّةً وأنّ هناك موقفًا واضحًا من مسألة العبوديّة، يحثّ الرسولُ من خلاله العبيدَ على الاستمرار على حالهم، فيقول: "أدُعيتَ وأنتَ عبدٌ ؟ لا أخذَكَ همٌّ! حتّى ولو أمكنكَ أن تتحرّر، فأحْرِ بكَ أن تستفيدَ من حالتكَ؛ فَمَن دُعِيَ في الرّبّ وهو عبدٌ، فهو مُعْتَقٌ للرب. كذلك مَن دُعِيَ وهو حُرٌّ، فهو عبدٌ للمسيح. بثمنٍ قد اشتُريتم، فلا تَصيروا عبيدًا للناس !" (١ كو ٧: ٢١-٢٢).

كذلك يحضُّ بولسُ هؤلاء على الطاعة لمواليهم، قائلاً: "أيّها العبيد، أطيعوا في كلّ شيء أربابَكُم حَسَبَ الجَسَد، لا في مُراقَبة، مُرْضِينَ للنَّاس، بل في بَساطَة قَلْب، مُتَّقِينَ للرَّبّ. أيَّ فعلٍ تَفْعَلُون، فمِنَ الصَّميمِ اعْمَلُوهُ، كما للرَّبّ لا للنَّاس، عالمِينَ أنَّكُم منَ الرّبّ ستَنالُونَ الميراثَ جَزاء، فالرَّبَّ المَسيحَ أنتُم تَخْدُمون: لأنَّ الظّالمَ سيلْقَى ما به ظَلَمَ، واللهُ لا يَعْبأُ بمقامات بَشَر!" (كول ٣: ٢٢-٢٥).

فإذا كان الأمرُ على هذه الحال، فإنّنا نتساءل عن قيمة هذه الإعلانات النظريّة عن المساواة، والمبنيّة على الانتماء المشترك إلى المسيح! قبل رسم جواب على ذلك، ينبغي اعتبار ظروف الرسالة حصرًا إلى فيلمون.

٣ – شكر وصلاة

يستهلّ بولس رسالته إلى فيليمون بفعل شكر لله على كلّ ما جاد به عليه وعلى عمله الرسوليّ، وبالصلاة، لأنّه أوّلاً رَجُلُ صلاة، وليضمنَ النّجاحَ لمهمّته التبشيريّة، وحسنَ المجازاة لنفسه من عند الربّ: "أشكر إلهي على الدّوام، ذاكرًا إيّاك في صلواتي" (آ ٤). يَجمع الرسول بين الصّلاة والمديح لفيلمون، عندما يضيف: "لأنّي سامعٌ بمحبّتك، وبالإيمان الذي تَكنّ للرّبّ يسوع ولجميع القدّيسين. لتكن مشاركتك في الإيمان فاعلة، فتعرف كلَّ صلاح يَسعُنا أن نفعله من أجل المسيح" (آ ٥-٦). كما نرى، هو يركّز على فضيلتَي المحبّة والإيمان التي يضيف إليهما في بعض رسائله فضيلة الرجاء في ترتيب متنوّع.

٤ – فرح وتعزية

"فلقد حصل لي فرح كبير وتعزية بمجيئك" (آ ٧). مَن يحتاج إلى التّعزية هو مَن أَلَمَّتْ به مأساة ما، أو حلّت به مصيبة. يتعزّى بولس في أسره بمجيء مَن يحبّ، ومَن يكنّ للرسول الوفاء والإخلاص والأمانة: "لأنّ صدور القدّيسين قد انشرحت بك، أيّها الاخ" (آ ٧). لنلاحظ استعمال الكلمات الرقيقة لفيلمون، وذلك لكي تكون بمثابة مقدّمة لما سيطلب منه الرسول لاحقًا.

٥ – دالّة وتوسّل

"برغم ما لي عليك من كبير دالّة في المسيح" (آ ٨). إنّ لبولس دالّةً على فيلمون تمكّنه من أن يطلب منه ما ينوي لصالح العبد الفارّ: "حتّى آمرك بما يجب، مع كلّ ذلك، أتوسّل إليك" (آ ٨ و٩). كذلك لبولس سلطان روحيّ ومعنويّ على فيلمون، وبإمكانه بالتالي أن يأمره لأنّ له فضلاً عليه، وهو مديون للرسول بإيمانه؛ مع هذا، فإنّه يتوسّل اليه: "أتوسّل إليك بالأحرى كرامةً للمحبّة، لأنّي أنا بولسَ شيخٌ، والآن أسيرُ المسيح يسوع. ومرّة أخرى أتوسّل إليك، من أجل ولدي أونسيموس الذي ولدتُه بالسلاسل" (آ ٩-١٠).

٦ – ولادة بالروح وأبوّة

هو بولس مَن ولدَ أونسيموس في السّجن ولادةً روحيةً في الإيمان، وفي أصعب الظُّروف، إذ كان "في السّلاسل، وشيخًا". ما يسترعي الانتباه بقوّة هو دفق الحنان في موقف بولس وفي تعابيره الرائعة: "كان أونسيموس في ما مضى غير نافع لك، أمّا الآن، فهو نافع لك ولي" (آ ١١). لم يكن نافعًا، لا بل مضرًّا، أمّا الآن، وقد أصبح مؤمنًا، فلقد صار،

على مثال بولس وفيلمون، إبنَ الإيمان، وبالتالي كلُّه إفادة وخير للاثنين معًا: "إنّني أرجعه إليك، إيّاه هو حُشاشتي" (آ ٢١)؛ يعيدُ بولس أونسيموس، لأنّه كان قد فرّ من عند فيلمون، وقد صار "حُشاشته"، أو "قلبه"، دلالةً على أعمق المشاعر وأطيبها.

٧ – التخلي الكبير

"كنت أحبّ أنا نفسي أن أبقيه عندي، ليقوم مقامك، بخدمتي في سلاسل الإنجيل" (آ ١٣). بتخلّي بولس عن أونسيموس، هو يقوم إذًا بفعل تجرّد، وإماتة، وتضحية، حبًّا بفيلمون، مع أنّه كان يتمنّى أن يبقيه معه، خاصّة وأنّه قد صار ابنَه بالايمان، وأصبح بالتالي مرتبطًا به برباط المحبّة الشديدة، لكنّه الآن يتخلّى عنه لصالح فيلمون. "لم أشأ أن أفعل شيئًا من دون موافقتك، لئلاّ يكون إحسانك اضطرارًا بل طوعًا" (آ ١٤). حتّى ولو كانت لبولس دالّة على فيلمون، وباستطاعته أن يُبقيَ أونسيموس عنده، فإنّه يتوسّل إليه، لأنّه لا يريد أن يفعل دون رضاه.

٨ – من عبد فارّ إلى أخ حبيب

"ربّما فُصلَ عنك لوقت، لكي تحوزَه الى الأبد" (آ ١٥). إنّ سبب انفصال أونسيموس عن فيلمون هو هرب الأوّل، ربّما لأنّه كان يشعر أنّ حقوقه مهضومة، أو أنّه عبد مأسور؛ ولكنّه، بعد أن ولده بولس في المسيح، أصبح له ولفيلمون إلى الأبد، لأنّه لم يبقَ ما يفصلُ بينهم، بل صاروا جميعهم جسدًا واحدًا في المسيح. يكرّر بولس هنا الفكرة ذاتَها التي وردت في الرسالة إلى كولوسّي، "لا عبد، بل أيضًا أرفع من عبد، أخ وحبيب" (آ ١٦)، ممّا يعني أنّه باستطاعة المسيحيّ أن يكون حرًّا، حتّى ولو كان مقيّدًا بالسّلاسل ومرميًّا في غياهب السّجون أو مقيّدًا بالعبوديّة.

٩ – من العبوديّة إلى الحرّيّة

تنبع الحريّة من الدّاخل، لأنّ الله هو مصدرها؛ فإذا كان المؤمن في علاقة حميمة مع الله، فإنّه يبقى دائمًا في السعادة والحرّيّة، مهما ضايقه المضايقون أو اضطّهده المضطّهدون، لأنّ محبّة المسيح تنتصر فيه وتنصره، لأنّ له "حرّيّة أبناء الله"، ولأنّ "حياته هي المسيح"، فلا مكانَ بالتالي للخوف عنده. يردّ بولس أونسيموس، ليس كعبد، بل أرفع من عبد: أخًا حرًّا وحبيبًا. إنّها المرّة الثانية التي يستعمل فيها بولس كلمتَي "أخ وحبيب" (آ ١٦)، لذا قال لفيلمون: "إذا كنت تحسبني شريكًا، فاقبله كما تقبلني" (آ ١٧). يرفع بولس هذا الإنسان الذي كان عبدًا وهاربًا، أي مخالفًا، إلى مستواه هو بالذات؛ فالإثنان محرَّران بالمسيح، ولذلك فهو يرجو فيلمون أن يقبل عبدَهُ، كما لو كان يقبل الرسولَ بالذّات. ويذهب بولس إلى النهاية في تحرير فيلمون، ليس فقط من الإساءة، بل أيضًا من الدَين الماليّ: "أمّا إن كان قد أساء إليك، أو كان مديونًا لك، فاحسبْ ذلك عليّ" (آ ١٨). ويضيف: "أنا أوفي (إذا كان هناك من دَيْن)، لئلاّ أقول إنّك أنت مديون لي حتّى بنفسك" (آ ١٩)؛ تدلّ هذه الكلمات على الدّالة التي كانت لبولس على فيلمون، مع هذا، فإنّه يسأله ما يسأل بالتوسّل.

١٠ – بالمسيح بَطُلَت العبوديّة

يحدّد بولس هويّةَ المعمَّدين بأنّهم خلق جديد: "فَمَنْ هو في المسيح هو خلقٌ جديد: ذهبَ العتيقُ، وصارَ خلقٌ جديد" (٢ كو ٥: ١٧). في هذا الواقع الجديد، بَطُلَتْ الفروقاتُ والمقاماتُ التي كانت تتقاسم مجتمعَ ذاك الزّمان، لصالح مساواة رائعة في المسيح: "لا يهوديّ بعدُ ولا يونانيّ، لا عبدَ ولا حرّ، لا ذَكَرَ ولا أنثى، فإنّكم واحدٌ في المسيح يسوع" (غل ٣: ٢٨)؛ "فنحن، يهودًا ويونانيّين، عبيدًا وأحرارًا، عُمِّدنا جميعًا جسدًا واحدًا، وسُقينا جميعًا روحًا واحدًا" (١ كو ١٢: ١٣)؛ "فلا يونانيَّ بعد ولا يهوديّ، لا ختانةَ ولا قلفةَ، لا أعجميّ ولا إسكوتيّ، ولا عبدَ ولا حرّ، بل المسيحُ هو الكلُّ وفي الكلّ" (كول ٣: ١١).

١١ – ثقة بولس بفيلمون

"أجل، أخي، إنّي لأبتغي أن تنفحَني بخدمةٍ في الرّبّ، فاشرحْ صدري في المسيح" (آ ٢٠)؛ ويضيف: "لقد كتبت إليك، وأنا واثقٌ بطاعتك" (آ ٢١). عاد بولس من جديد ليؤكّد على أنّه هو المرجع، وهو الرسول، أمّا فيلمون، فهو مؤمن متعلّق ببولس وتحت سلطانه؛ لذلك هو يعبّر له عن ثقته بأنّه سيلبّي سؤلَه بصريح العبارة: "أنا عالم أنّك ستفعل أكثر ممّا أقول" (آ ٢١). يتكلّم بولس إلى أخ حبيب، إلى شخص يثق به.

يحاول بولس الأسير أن يحرّر أونسيموس الأسير، خاصّةً وأنّه اختبر الأسرَ القاسي، وبالتالي فهو يسكب كلَّ حنانه على أسيرٍ بإمكانه أن يحرّره، ويخاطب بحنانه الأبوي أيضًا فيلمون الحبيب.

ولأنّه أسير ويرجو أن ينال هو أيضًا الحرّيّة ويعود الى أحبّائه، طلب من فيلمون بكلّ دالّة وثقة قائلاً: "أعددْ لي منزلاً، فإنّي أرجو بصلواتكم أن أوهب لكم" (آ ٢٢).

١٢ – الرسالة شخصية وجماعيّة

لقد كتبَ بولسُ الرسالةَ إلى فيلمون بخطّ يده (آ ١٩)، وشاءها **رسالةً شخصيّةً**، أي إلى شخص معلوم الهويّة، اسمه فيلمون، وفي الوقت عينه **جماعيّة**، أي إلى الكنيسة التي في بيت فيلمون (آ ٢)، كون موضوعها يهمّ الكنيسة بأسرها[٤]. إنّها بالتأكيد تحفة رائعة، غنيّة بالإيمان، وعابقة بالعاطفة، وتنمّ عن حسن تدبير للأمور؛ فهي تتضمّن توصية بأونسيموس، وتشفّعًا به، وتوسّطًا من أجله لدى فيلمون، وهذا الأمر كان مألوفًا في الكنيسة الأولى (أنظر رو ١٦: ١؛ ٢ كو ٣: ١-٢؛ كول ٤: ١٠؛ ٣ يو ٩-١٠ و١٢). لقد كان فرار العبيد من بيوت مواليهم أمرًا رائجًا.

وبالرّغم من أنّ الرسالة محصورة بمسألة فرديّة معيّنة، فإنّها ذات **طابع رسوليّ**[٥]، كغيرها من الرسائل، كتبها بولس وهو "أسير" (آ ١، ٩، ٢٣)، لتُقْرأ في الجماعة (آ ٣، ٢٥). هي تعجّ بالكلمات التي تعبّر عن المحبّة: "حبيبنا" (آ ٢)، "أخ حبيب" (آ ١٦)، "محبّتك" (آ ٥، ٧)، "المحبّة" (آ ٩)، الخ؛ بكلمة "حبيبنا" (آ ١)، اعتاد بولس أن يعبّر عن محبّته للمؤمنين (رو ١: ٧؛ ١ كو ١٠: ١٤؛ ١٥: ٥٨؛ ٢ كو ٧: ١؛ ١٢: ١٩؛ فل ٢: ١٢؛ ٤: ١)؛ وفي هذه الرسالة تشديد خاصّ على موضوع المحبّة (آ ٥، ٧، ٩، ١٦) التي تشكّل مفتاح الحلّ لمسألة أونسيموس مع فيلمون سيّده، ونهجًا كنسيًّا لصالح أولاد الكنيسة أجمعين[٦].

خلاصة

ما قيل في هذه العجالة، إنّما هو مدخل إلى فهم الرسالة. يبقى أن نغوص في عمق الموضوع، ونتوقّف عند كلّ كلمة، ونشرحها ونضعها في الإطار العامّ، ونُبرِزَ التصميم، لنبلغ إلى المعنى البيبليّ واللاهوتيّ والروحيّ للرسالة.

من خلال هذه الآيات القليلة يعلّمنا بولس أمورًا رائعة وسامية: الحرّيّة هي للجميع، فليس هناك عبد وحرّ، ولا يونانيّ أو يهوديّ، لا أسكوتيّ أو أعجميّ؛ لقد أصبح الجميع بالمسيح متساوين. لذلك أخذت هذه الرسالة أهمّيّة كبيرة في تاريخ الكنيسة، خاصّة لدى الطبقات المناضلة للحرّيّة.

(٤) John H. ELLIOTT, "Philemon and House Churches", *BT* 22/3 (1984) 145-150.

(٥) F. F. BRUCE, *The Epistles to the Colossians, to Philemon, and to the Ephesians*, Grand Rapids, Eerdmans, 1984; C. F. COLLANGE, *L'épître de saint Paul à Philémon*, CNT 2e série 11c; Genève, Labor et Fides, 1987; M. CARREZ et alt., *Lettres de Paul, Jacques, Pierre et Jude*, La petite bibliothèque des sciences bibliques, NT 3, Desclée, Paris 1983, pp. 712-220.222.

(٦) Mary Ann GETTY, "The Letter to Philemon", *BT* 22/3 (1984) 137-144.

المراجـــع

بولس الفغالي، "رسالة القدّيس بولس إلى تلميذه فيلمون"، **بولس ورسائله**، سلسلة دراسات بيبلية ٢٣، الرابطة الكتابيّة، بيروت ٢٠٠١، ص ٢٩١-٢٩٣.

BARCLAY John M. G., "Paul, Philemon and the Dilemma of Christian Slave-Ownership", *NTS* 37 (1991) 161-186.

BRUCE F. F., *The Epistles to the Colossians, to Philemon, and to the Ephesians,* Grand Rapids, Eerdmans, 1984.

COLLANGE C. F., *L'épître de saint Paul à Philémon,* CNT 2e série 11c; Genève, Labor et Fides, 1987.

CARREZ M. et alt., *Lettres de Paul, Jacques, Pierre et Jude,* La petite bibliothèque des sciences bibliques, NT 3, Desclée, Paris 1983, pp. 712-220.222.

ELLIOTT John H., "Philemon and House Churches", *BT* 22/3 (1984) 145-150.

GETTY Mary Ann, "The Letter to Philemon", *BT* 22/3 (1984) 137-144.

LEGASSE Simon, *L'épître aux Philippiens. L'épître à Philémon,* Cahiers Évangile, n. 33, Cerf, Paris 1980.

DAUB David, "Onesimos", *HTR* 79/1-3 (1986) 40-43.

LEHMANN R., *Épître à Philémon. Le christianisme primitif et l'esclavage*, Genève, Labor et Fides 1978.

LOHSE E., *Colossians and Philemon*, Hermenia, Philadelphia, Fortress, 1971.

WINTER S. C., "Paul's Letter to Philemon", *NTS* 33 (1987) 1-15.

WRIGHT N. T., *Colossians and Philemon*, TNTC, Leicester, Intervarsity, 1986.